الوظيفة الفنية
للقصة القرآنية

بقلم : الدكتور محمد احمد خلف الله

هناك نواح عدة يستطيع الدارس أن يقف عندها ليبرز الخصائص الفنية فى القصة القرآنية . فهناك مثلا عنصر الشخصية وهى متنوعة فى القصص القرآنى . فمنها ما هو من الطيور والحشرات ، ومنها ما هو من الملائكة ، ومنها ما هو من الجن ، ومنها ما هو من الأنبياء والمرسلين ، ومنها ما هو من الرجال العاديين ، ومنها ما هو من النساء .

وهناك مثلا عنصر الحوار . وهو أيضا متنوع الأسلوب مختلف الجمل والفقرات باختلاف المواقف القصصية .

وهناك أيضا عنصر الحادثة ذلك الذى يختلف فيه رسم الحادثة فى موطن عنه فى آخر باختلاف الموقف ، واختلاف القصد والغرض .

هناك عناصر عديدة ، وهناك خصائص فنية مختلفة . وكل منها يستحق الوقوف عنده لتقديره والحديث عما فيه من قيم جمالية — ولكنى آثرت أن أقف عند أمر آخر له قيمة فى نظرى هو الوظيفة الفنية للقصة القرآنية .

ان القصة القرآنية تهدف الى اغراض بعينها — أغراض دينية فى الغالب — ولكنها عند تحقيقها لهذه الأهداف تؤدى وظيفة أخرى هى الوظيفة التى تؤديها الفنون جميعها .

والوظيفة التى تؤديها الفنون جميعها قد تنتهى عند عملية الايحاء والاثارة .

يقول أحد النقاد المحدثين « انك اذا مررت صدفة بالقطعة الفنية النفيسة أثناء اجتيازك متحف الفنون الجميلة قد تحرك عواطفك بل ربما أثارت دموعك . وكذلك يقال عن القطعة الموسيقية الجيدة التى ليس من الضرورى أن تكون محزنة .

« اما لماذا تثار هذه العاطفة الخاصة فامر لم يتقرر بعد . وهو أمر لا نستطيع تحليله — غير أن وحى الفن للعاطفة فى غير هذه الأحوال قابل للتحليل . فان الشىء المحزن يوحى لباعث الحزن مباشرة ، والمضحك لباعث الضحك ، والمؤسف للخوف والهروب . كما أن الدافع الجنسى يستثمر فى الرسم والنحت فى أحيان كثيرة كما يستثمر فى الآداب » .

ويقول نفس الناقد : « ان الفن قد يرضينا لانه يوحي الينا وحيا فكريا ـ كما يتضح عندما نتذكر ان كثيرا من الاعمال الفنية العظيمة يحتاج الى جهود فكرية لكي نفهمها ونرتاح اليها ، فيجب ان تكون منتبها كل الانتباه لتتمكن من متابعة رواية من روايات شكسبير ، كما انك تحتاج الى ايجاد مغزى لصورة زيتية قبل ان تتمكن من التلذذ بها جيدا .

« وقد لا تفكر عادة عندما ترى صورة فنية جميلة او تسمع قطعة موسيقية بديعة انها مسالة تحتاج الى حل .

ولا يخفى ان ادراكنا مغزى قطعة فنية يحتاج الى جهود وانتباه . واذا كانت المسالة المطروحة امامنا صعبة جدا كان العمل الفني جافا ، واذا كانت سهلة كان تافها » .

والقرآن الكريم نفسه قد لفت الذهن الى هذه الوظيفة حين تحدث عن اثر الانوال في النفوس ، وكيف انها تستثير العواطف ـ مع او ضد الاشياء .

قال تعالى : « واذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون »

وقال تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا » .

* * *

والوظائف الفنية للقصة القرآنية نجملها فيما يلي :

١ ـ واول هذه الوظائف واهمها من وجهة نظر القرآن نفسه تخفيف الضغط الماطفي عن النبي عليه السلام وعن المؤمنين ، ولقد كان هذا الضغط قويا عنيفا وكانت اسبابه واضحة جلية ، فلقد كانت اقوال المشركين وكانت اعمالهم التي يكيدون بها للنبي عليه السلام ، والقرآن الكريم ، والدعوة الاسلامية ، هي السبب في كل هذا الذي دفع النبي عليه السلام الى ان يضيق .

قال تعالى : « ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون » . وقال تعالى : « قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »

كان اثر هذه الاقوال في نفس النبي قويا فعالا ، وكانت تلك الخواطر التي احدثت مكانها من قلب النبي عليه السلام او من قلوب الاتباع . قال تعالى : «فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين »

على أن هذا الضغط الماضى لم يقف عند حد الليلة السعيدة ، بل تجاوزها الى ما هو ابعد مدى وانفذ أثرا ، حتى لنرى النبى عليه السلام يدعو ربه وهو محتق يكظم غيظه ويضغط مواطفه تلك التى أوشكت على الانفجار . قال تعالى : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » .

وقال تعالى : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » وقال : « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا أنزل عليه كنز او جاء معه ملك انما انت نذير والله على كل شيء وكيل »

كان تخفيف هذا الضغط او كانت الافاضة عما بنفس النبى عليه السلام ونفوس الانصار والاتباع مقصدا من مقاصد القصص القرآنى ، حتى لا تتزلزل النفوس ، وتنزل الدعوة الاسلامية . ولو حدث هذا لما قامت لها قائمة .

كانت عملية القصص فى مثل هذه الظروف من العمليات التى يقصد من ورائها القرآن تثبيت قلب النبى عليه السلام وقلوب المؤمنين ، ورد الثقة الى انفسهم ، وبث الطمانينة فى قلوبهم ، وازالة الهم والقلق . وكانت النتيجة لكل هذا هى ذلك الصبر الطويل ، والثبات التى وصل بهم فى النهاية الى النصر على الاعداء والمعارضين .

على ان القرآن نفسه قد صرح بهذا الغرض حين قال : « وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » وحين قال : « نتلو عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الأرض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »

وهذا الأمر هو الذى عطى اليه الرازى فيما نقلنا عنه من حديث .

والقصص التى نزلت من اجل هذا كثيرة فى القرآن الكريم . ومنها مجموعة القصص التى وردت فى سورة هود . ولقد لمت القرآن الذهن الى المقصود من هذه المجموعة فى مواطن كثيرة من السورة . فقد قال فى أولها : « فلعلك تارك بعض ما يوحى ... الخ وفى آخرها (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... الخ

ومن هذه القصص ايضا قصة موسى فى سورة طه ، ولعله من أجل ذلك بدأ المولى سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر

بالقول فانه يعلم السر واخفى الله لا اله الا هو الاسماء الحسنى وهل اتاك حديث موسى ... الخ » . اذ يمضى القرآن فى سرد القصة مبينا العقبات التى لاقاها موسى عليه السلام والصعاب التى وضعها فرعون فى طريقه ، ثم الصعاب التى تعاون فى توجيهها الى موسى كل من قومه وأخيه الساحرى الى أن ينتهى النص بقوله تعالى **« كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا ! »** .

ومن هذه القصص ايضا قصة موسى فى سورة القصص ، ومجموعة من قصص سورة الأنبياء واخرى من قصص سورة الصافات .

واذا اردنا ان نختار قصة تمثل نفسية النبى عليه السلام فى موقفه من قومه، وفى فترة من فترات تاريخه اصدق تمثيل فلن نجد أقوى من قصة نوح فى سورة نوح ، تلك القصة التى تعرض لمشكلات النبى عليه السلام ، او عهده بالدعوة الاسلامية مشكلة مشكلة ، والتى تتمشى فيها حركة الأسلوب مع حركة العاطفة . والتى تمثل الضيق الذى ألم به كما تمثل اتجاهه الى الخالق سبحانه وتعالى ليخفف عنه البلاء ، ويمقد المؤمنين من هذه الجماعة الضالة المضلة ـ وهى جماعة الكافرين .

قال تعالى : **« بسم الله الرحمن الرحيم . انا أرسلنا نوحا الى قومه ان انذر قومك من قبل ان يأتيهم عذاب اليم . قال يا قوم انى لكم نذير مبين ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا ، وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم انى دعوتهم جهارا ثم انى اعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم اطوارا الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله انبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا ، قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد اضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا ، مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا ، وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا ، رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنين ، ولا تزد الظالمين الا تبارا .**

فهنا قصة لها قيمتها الادبية . ولو حاول النبى عليه السلام تصوير حاله فى قصة لما صورها بقصة أحسن مما اختار له الخالق سبحانه .

والتشابه هنا تام بين حالة نوح في القصة وحالة محمد عليه السلام ، نلحظه في عناصر الدعوة من عبادة الله وطاعته كما نلحظه في طريقة الدعوة من حيث الجهر والاسرار ، وفي مقابلة القوم لنبي الله ودعوته بالنفور والفرار ثم بالاستكبار ، وجعل الأصابع في الآذان ، ثم في الاشياء التي رغب فيها في الايمان من الامداد بالمال والبنين والأنهار والجنات ، ثم في الأشياء التي تلفتهم الى عظمة الخالق سبحانه وتعالى من خلقهم أطوارا ، ومن خلق السموات السبع الطباق ، ومن جعل القمر نورا والشمس سراجا ،ومن انباتهم من الارض وجعلها بساطا ليسلكوا فيها سبلا فجاجا . ثم في مناجاته لربه تلك المناجاة التي يخبره فيها انهم اتبعوا الأغنياء ومن لم يزدهم مالهم وولدهم الا خسارا ، ثم في تصويره لكر هؤلاء الأغنياء او القادة حين طلبوا من قومهم البقاء على ما هم عليه من عبادة الأوثان .

وهنا لابد من لفت الذهن الى أن الأوثان هنا هي بعينها ، تلك التي كانت تعبد في الجزيرة العربية اول عهد الجزيرة بالبعثة ومحمد عليه السلام « ود . سواع . يغوث . يعوق . نسر » .

وأخيرا يكون التشابه أيضا في التجاءه نحو ربه ، ودعائه على الكفرة من قومه ، وطلبه من المولى سبحانه وتعالى ان يستأصل شأفتهم ، حتى ينجو العالم من شرورهم وآثامهم وحتى لا يبقى الا من دخل بيته من أهل التقوى والايمان .

ونعتقد أن هذه القصة من القصص التي كان النبي عليه السلام يجد فيها صدى نفسه ، وانها من هذا الجانب كفيلة بأن تريح من كاهله بعض الاثقال وأن تزيل عن نفسه بعض الالم ، وان ترد الى نفسه الثقة والطمأنينة ، حين يرى أنه ليس الواحد الفرد في هذا الميدان .

* * *

٢ ـ وتجري مع عملية تخفيف الضغط العاطفي عملية أخرى لا تقل عنها اثرا في حياة الدعوة الاسلامية ، تلك هي عملية توجيه العواطف القوية الصادقة نحو عقائد الدين الاسلامي ومبادئه ، ونحو التضحية بالنفس والنفيس في سبيل كل ما هو حق ، وكل ما هو خير وكل ما هو جميل .

ولعل هذه العواطف هي التي تدفع الى النشاط للدعوة ، كما تجعل الانسان يستعذب الالم ويتحمل الأذى في سبيلها . ومن هنا يكون التوجيه نحو القيم الجديدة والايمان بها ، ثم الدفاع عنها والعمل على حث الناس على الايمان بها . ايمانا قد لا ترجزعه الحوادث ، وقد لا تذهب به النكبات .

ومثل ذلك ومن صميم العمل الفني أيضا العمل على تكوين عواطف قوية وصادقة ضد كل ما هو قبيح ودميم من الأشياء والناس . وعند ذلك تتذبذب المبادىء التي شاخت وهرمت وأصبحت لا تسير الحياة والأحياء . وذلك هو الذي

ضده القرآن حين نص ما استثار المشاعر وولد عواطف الكراهية والمقت للاوثان وعبادتها . وما أحيطت به تلك العبادة من ضروب للتقديس ومن تقاليد وعادات .

والأشياء التي حاول القرآن توجيه العواطف نحوها هي مشكلات البعث والوحدانية ، وبشرية الرسل ، وتأييد بعضهم بالمعجزات ... الخ

أما الأشياء التي حاول القرآن خلق عواطف ضدها فكثيرة متنوعة ، نذكر منها على سبيل المثال :

(أ) تلك التي تتصل بالقيم الخلقية من أمثال اللواط وبخس الناس اشياءهم ، وتطفيف المكيال والميزان .

(ب) ومنها ابليس والشيطان ، وقصة ابليس مع آدم قصة ادبية بليغة تعتبر احد النماذج الأدبية العنصرية في القصص القرآني .

وقصة ابليس مع آدم من القصص التي تستثير العاطفة ، وتنشط الخيال والتي تقف الفكر امامها حائرا ، حتى يتسنى الى الاحساس بالعجز عن فهم تلك الأسرار الخفية التي دارت في الملأ الأعلى في جو تحيط به الظلال وتكتنفه الغيبيات.

هذه الأمور بالذات هي التي دفعت بالرازي الى الحيرة ، وجعلته عاجزا عن فهم الصنيع الالهي والمقصد القرآني والوقوف على اسرار ما دار هناك ، وكانت نتيجته اجراح آدم وحواء من الجنان .

يقول رحمه الله عند تفسيره للقصة من سورة الأعراف ما يلي .. السؤال الثاني ان آدم عليه السلام كان يعرف ما بينه وبين ابليس من العداوة فكيف قبل قوله ؟ .

والجواب لا يبعد أن يقال ان ابليس لقي آدم مرارا كثيرة ، ورغبه في اكل الشجرة بطرق كثيرة ، فلاجل المواظبة والمداومة على هذا التمويه اثر كلامه في آدم عليه السلام » . اذ نلحظ في هذا الموقف من الرازي انه لا يطمئن الى قصة دخول ابليس الجنة بعد طرده منها . كما نلحظ ان عقله لم يقبل ايضا قصة الحية ، ولذا نراه رحمه الله يفترض أن ابليس قد لقي آدم مرارا وتحدث اليه .

على أنا نجد الرازي في موقف آخر يعجب كثيرا من موقف آدم واستجابته لدعوة ابليس ، واهماله لتعاليم ربه ، وذلك عند تفسيره للقصة من سورة طه اذ نراه يقول « واعلم ان واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله : « **فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظما فيها ولا تضحى** » ورغبه ابليس ايضا في دوام الراحة بقوله : « **هل ادلك على شجرة الخلد** » ، وفي انتظام المعيشة بقوله : « **وملك لا يبلى** » فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه ابليس فيه الا ان الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس من تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها

ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له ، وعرض نفسه للمحنة بسبب عداوته ـ كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بكمال عداوته له ، واعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه الناصر والمربي .

ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه ، وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه ، وأن الدليل وان كان في غاية الظهور ونهاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله تعالى ذلك وقدره » .

ونحن لن يطول تعجبنا من هذه القصة كما طال مع الرازي ، ذلك لأنا نعلم ان هذه القصة ، قصة بليغة تصور الصراع بين قوى الخير وقوى الشر ، ولعل هذه الحيرة التي لحظناها عند الرازي هي الدليل القوي على أن هذه قصة ادبية بكل ما يحمل معنى هذا اللفظ من صور ، وهي من هذا الجانب من القصص الادبي الطليق .

واذا اردنا ان نختار واحدة من هذه القصص الدائر حول قصة الخروج من الجنة فأمامنا قصة آدم من سورة الأعراف .

قال الله تعالى « **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك الا تسجد اذ امرتك قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين قال : انظرني الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين قال فبما اغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين ويآدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ماووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون . »**

فهذه القصة كما ترى تستعرض العداوة بين آدم والشيطان ونرينا أن ابليس يرى نفسه افضل من آدم ، لانه خلق من نار وآدم خلق من طين ، وهذا هو الامر الذي دعمه الى الكبر والاستكبار فأبى السجود . ومن هنا كان العقاب من الخالق سبحانه ، وكان العقاب اخراج ابليس من الجنة ذليلا صاغرا .

وهذه القصة تريدنا ان ابليس طلب من الخالق قبل ان يخرج من الجنة ان يأذن له بالدخول ليستطيع ان يلعب دوره في الحياة ، وهو الافساد وصد الناس عن اتباع السبيل القويم .

هنا نحس ان احدى مراحل القصة قد انتهت ، وهي مرحلة الخلق والسجود وهي المرحلة التي تصور فيها نشأة البداية . وتبدأ بعد ذلك مرحلة ثانية هي آدم وحواء في الجنة ، وهما شخصيتان تتصلان بالحياة ، اذن لهما الخالق سبحانه وتعالى ان يطعما كل ما في الجنة الا شجرة واحدة . هنا يأتي الدور الحقيقي لبطل القصة وهي ابليس فقد بدأ وسوسته لأول انسان من الشر هو ذلك الذي من اجله خرج من الجنة .

استجاب آدم لوسوسة الشيطان وأكل من الشجرة وخالف أوامر ربه فكانت عاقبته الخروج من الجنة ، وخرج الى حيث ينتظره ابليس .

بعد ذلك يكون العقاب بين الخالق والمخلوق ، ويكون التوجه الديني وهو يشير الى حد كبير ذلك المعنى الذي نقصد اليه من القصص الخلقي .

تلك هي قصة آدم وابليس ، او قصة الصراع بين الخير والشر أو قصة الغرائز الفاضلة مع الغرائز الشريرة . وهي قصة قصد القرآن اليها وساقها بناء ادبيا بليغا ، ودفع بها الينا لتثير فينا الحقد والكراهية لابليس ، وتدفعنا الى النفور منه حتى لا نستجيب له ولا نأتمر بأمره او نستمع الى نواهيه .

* * *

(ج) ومنها الكبر والاستكبار والاصرار والعناد ، ويستوي في ذلك كثير من الأشخاص خاصة الانبياء والقادة ، أولئك الذين أخذوا دور العتاة الطاغين الذين يستكبرون على الحق ، ولا يريدون اتباعه .

ولعل أبرع المواقف القصصية التي تصور هؤلاء القادة ، وتحرك عواطفنا نحوهم موقف فرعون من موسى عليه السلام ، وموقف المستكبرين من قوم هود وقوم صالح .

واذا كانت قصة الخروج قد استثارت العواطف وارحت للخيال العنان فاننا نجد موقف فرعون يصنع مثل ذلك الصنع في القارىء لقصصه في القرآن

وفرعون من الشخصيات القصصية التي تنبض بالحيوية وتتحرك قاسية عنيفة فتشيع الرهبة في النفوس ، والخشية في القلوب ، وتخرج منها الفاظ التهديد والوعيد وهي تقطر دما .

واذا اردنا أن نختار قصة تمثل مواقف المستكبرين من الرسل والانبياء والنتيجة التي انتهت اليها الامور ، فلن نجد فيما يخص فرعون أحسن من موقفه من موسى في قصته الواردة في سورة يونس .

قال تعالى : « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر

مبين . قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم اسحر هذا ولا يفلح الساحرون ، قالوا اجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض وما نحن لكما بمؤمنين ، وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون فلما القوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ... ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون . فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم وان فرعون لعال في الأرض وانه لمن المسرفين ... الخ »

في هذه القصة التي لم نتم تسجيلها هنا عرض لمواقف فرعون من موسى وقومه ومن السحرة انتهى بالنتيجة التي تنتهي بها القصة الشعبية في كثير من الآداب العالمية من انتصار البطل والقضاء على الظالم الطاغية .

ولنلمس نفس الروح من موقف عاد من نبيها . قال تعالى « **فاما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من اشد منا قوة أو لم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فارسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون** »

وليس من شك في ان نتيجة القصص لامثال هذه المواقف يلقى في النفس الحشية والرهبة ويبث فيها الخوف عندما تحس أن النتيجة هي العقاب ، وليس من نتيجة للخوف سوى الهرب والابتعاد عن مصدر العقاب ، وعند ذلك تكون النفرة وتكون الكراهية .

(د) ومنها عبادة غير الله = فقد كثر استثارة الانفعالات ضدها وتنفير الناس منها وكان ابراهيم هو البطل الذي دار حوله اكثر ما نزل من قصص يهدف الى هذه الغاية ، ويستعين بالوسائل العنيفة للتنفير والاحتقار .

دار بعض هذا القصص حول عبادة النجوم . ودار بعضه الآخر حول عبادة الاوثان ، وكانت وسيلة ابراهيم الى غايته ان يشكك القوم فيما يعبدون ويضع بين ايديهم صورا لهذه الآلهة ، وهي عاجزة العجز التام عن أن تنفع او تضر ، كما اطلعهم على انهم يعبدون ما ينحتون ، فهم الذين يصنعون هذه الآلهة ، ثم يقومون نحوها بضروب التقديس والاجلال . واذا اردنا ان نختار احدى القصص التي تصور هذه الناحية فلن نجد خيرا من قصة ابراهيم في الشعراء « **واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم او يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال افرأيتم ما كنتم تعبدون ، انتم وآباؤكم الاقدمون ، فانهم عدو لي الا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين ، والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين ،**

رب هب لي حكما والحقني بالصالحين ، واجعل لي لسان صدق في الآخرين ، واجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبي انه كان من الضالين ، ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم ، وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ، فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود ابليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله ان كنا لفي ضلال مبين ، اذ نسويكم برب العالمين، وما أضلنا الا المجرمون ، فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ، ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم . »

اذ في هذه القصة نلحظ موقف ابراهيم من أبيه وقومه وهو يسألهم عما يعبدون وانهم ليجيبونه بان معبوداتهم هي الاصنام لكنه يعود فيسأل عما تقدمه لهم من خير وتيسير لهم من منافع . وانه ليتجه بالسؤال نحو حاستين ضروريتين للمخلوقات فضلا عن الخالق هما الوسيلة للاستجابة وهما السمع والبصر .

ويعجز القوم عن الاجابة ويعرفون انه التقليد ، وانهم ماعبدوها الا لانهم وجدوا آباءهم الاقدمين على هذه الحال ، يعبدونها ويقومون نحوها بضروب التقديس والاجلال ، وهنا تثور نفس ابراهيم ، ويعلن العداوة الا لخالقه الذي يطعمه ويسقيه واذا مرض فهو يشفيه والذي يميته ثم يحييه ، والذي يطمع في ان يغفر له خطيئته يوم الدين ، وشتان بين الصورتين وبين النوعين من الآلهة . نوع يستجيب فينفع او يضر ونوع لا يستجيب بل لا يسمع ولا يبصر . وليس هناك من دافع يدفع الى النفرة والكراهية من الاوثان أفضل من هذا ؟

بعد ذلك نلحظ تلك المناجاة التي يتوجه فيها نحو خالقه يدعوه فيها تلك الدعوات الصالحات ، رب هب لي حكما والحقني بالصالحين ، واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لابي انه كان من الضالين ، ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

وتنتهي القصة بتصوير مشهد في الآخرة ، مشهد يذيب القلوب ويبعث على النفرة من عبادة الاوثان . مشهد يصور ذلك الخصام العنيف الذي سيكون بين الاصنام وعابديها ويصور الحسرة والالم على ماضاعوا من أعمار ، وماتركوا من خير ، كما يصور الندم من اتباع المجرمين والاستماع الى القادة المضلين . **قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين ، وما أضلنا الا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين . »**

ثم تكون تلك العبرة التقليدية ، التي يختم بها القرآن قصصه في هذه السورة وهي ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم

وكنا نستطيع أن نمضي في الحديث من تلك الاشياء التي إثار القصص القرآني

النفوس صدها كصد الناس عن سبيل الله وكالحسد . وكنا نستطيع ان نمثل لذلك ببعض القصص كقصة شعيب ويوسف وابني آدم ، ولكنا آثرنا ان نكتفي بما تقدم لان القصد كان التدليل على وجود هذا الغرض ، وضرب الامثلة التي تثبت وتوضح . ونعتقد أن قد بلغنا من ذلك ما نريد .

* * *

٣ ــ والقصة كما تقوم بعملية الاقامة وعملية الايحاء أو تكوين عواطف قوية وصادقة مع أو ضد القيم الخلقية والدينية الاجتماعية الموجودة في البيئة او المراد فرضها عليها ، تقوم بعملية أخرى لا تقل عن هذه اثرا في حياة الاسلام والمسلمين تلك هي الثقة والطمأنينة أو بدر بدور الخوف والقلق والاضطراب النفسي .

القصة القرآنية لها حظها من هذه الناحية فهي التي تولد هذه الاشياء بعرضها صورا من الحياة الدينية انتصر فيها الدعاة ومن آمن بهم ، وحاق الدمار والهلاك بالقادة المعارضين ومن اتبعهم ــ وهذه الامور ملحوظة في مجموعات قصص سور الاعراف والشعراء والقمر .

ونلحظ ان عملية الخلق النفسي في هذه المجموعات تقوم على اساس اختيار بعض العناصر المعروفة ــ والمتداولة من أخبار الامم السابقة ، ومزجها واخراجها في الثوب الذي يؤثر الاثر المطلوب من اشاعة القلق والاضطراب في قلوب الكفرة والمشركين ، أو رد الثقة والطمأنينة لنفوس المؤمنين . ومن هنا قال شعيب لقومه **« ياقوم لا يجرمنكم شقاقي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم بعيد »** .

ويستطيع أن نأخذ بعضا من قصص سورة القمر ولتكن **« كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعا ربه اني مغلوب فانتصر ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر وحملناه على ذات الواح ودسر تجري باعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كانهم اعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت ثمود بالنذر فقالوا ابشرا منا واحدا نتبعه انا اذا لفي ضلال وسعر ءالقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب اشر سيعلمون غدا من الكذاب الاشر انا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر من مدكر »** .

أنا نلحظ التشابه التام في نهاية القصة في هذه المجموعة كما نلحظ انها تبتدىء وتنتهي بعبارات تقليدية كذبت ... بالنذر ، فكيف كان عذابي ونذر ، وتوجيها تقليديا ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . ثم نلحظ قصر الفقرات وتعاقب الجمل بعبارات مسجوعة ذات رنين قوي . وقد كان القصد فيما نعتقد ان تؤثر

هذه الموسيقى على الحس ، فيتضاعف الاثر النفسى ويقوى ، واذا ما ضممنا الى ذلك ماتقوم به عملية التكرار القصصى من عرض صور سريعة ومتلاحقة بحيث لا يكاد الانسان ينتهى من مشاهدة واحدة منها حتى تهجم عليه الاخرى . قدرنا مقدار ما تشيعه هذه الصور من اضطراب وقوض وقلق نفسى ، خشية أن ينزل بهم الضرر أو ينالهم الاذى .

وكذلك نلحظ نفس العملية فى قوله تعالى : « **الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فترى القوم فيها صرعى كانهم اعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية** » .

اما قصة شعيب « **والى مدين اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان انى اراكم بخير وانى اخاف عليكم عذاب يوم محيط ويافوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولاتبخسو الناس اشياءهم ولاتعثوا فى الارض مفسدين ، بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما انا عليكم بحفيظ . قالوا ياشعيب اصلاتك تامرك ان نترك مايعبد آباؤنا او ان نفعل فى اموالنا مانشاء انك لانت الحليم الرشيد . قال ياقوم ارايتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب . وياقوم لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود ، قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز ، قال ياقوم ارهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ، ان ربى بما تعملون محيط ، ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا انى معكم رقيب . ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين كان لم يغنوا فيها الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود** انتهى .

فهذه قصة تجرى هينه ليته ويبقى البطل هادئا رزينا واستحق بحق ما اطلقه عليه بعض المفسرين من لقب خطيب الانبياء . فهو يحاور القوم ويداورهم لكن لاثائرة ولا حركة ولا انفعالا قويا عنيفا يدفعه الى العبارات القاسية التى يقطر الدم من الفاظ التهديد والوعيد فيها . وتمضى القصة حتى تنتهى الى تلك النهاية السعيدة بالنسبة لشعيب والمؤمنين وتلك النهاية المؤلمة بالنسبة للكفرة والمشركين .

وهكذا اكثر القصص كقصة موسى فى القصص وقصص الصافات ، اذ كل هذه القصص تصور النتيجة الاخيرة لكل صراع فى سبيل المبدأ والعقيدة ، وهى انتصار المؤمنين وخذلان المنكرين المخالفين **انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** .

٦ ـ ونستطيع أن ننتهي من هذه الوظائف بوظيفة أخيرة هي الايحاء بأن محمدا عليه السلام رسول حقا وأن الوحي ينزل عليه ويبلغه أخبار السماء .

وتقوم العملية الفنية في بعض هذه القصص على أن حالة محمد عليه السلام تشبه حال غيره من الانبياء كموسى وابراهيم « انا ارسلنا اليكم رسولا كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول » . « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل كان الله عزيزا حكيما ، لكن الله يشهد بما انزل اليه انزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا » .

وعلى أن ما طلب اليه وما أوصاه الله به هو ما أوصى به الانبياء من قبل « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب » .

وفي هذا نستطيع أن نقول ان الغرض كان من قبل عرض الاخبار العادية التي لم يقصد بها الا لفت الذهن الى قصة من القصايا .

والقصة التي نستطيع ان نسميها قصة فيما يخص نواحي هذا الغرض هي تلك التي عالجت الامر الثالث أو الاخير وهي معرفة أخبار السماء وأن الوحي ينزل عليه بها وأنه ما كان يعرفها من قبل .

والقصص التي تمثل هذا النوع كثيرة منها قصة موسى في القصص وقصة نوح في هود . واذا حاولنا انتقاء قصة تفي بالغرض وتدل على المراد فلن نجد افضل من قصة مريم في آل عمران وهي « اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك مافي بطني محررا فتقبل مني انك انت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى واني سميتها مريم واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم اني لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ، قال رب اني يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ، قال كذلك الله يفعل مايشاء . قال ربي اجعل لي آيه قال آيتك الا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزا ، واذكر ربك كثيرا ، وسبح بالعشي والابكار . واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين . ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وماكنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وماكنت لديهم اذ يختصمون » .

في هذه القصة نلحظ معرض صور . فهناك صورة امراة عمران وندرها وصورة زكريا ودعائه وصورة عيسى ورسالته ، وتدخل مريم في كل صورة من هذه الصور ، ومع كل شخصية من هذه الشخصيات حسب ما يتطلبه الموقف من ظهور تام جلي او ظهور ناقص خفي .

نلحظ صورة امراة عمران تلك المراة المتدينة التي نذر ما في بطنها لله وفي سبيل الله . ثم نلحظ تلك اللحظة الحميمة من الالم والحسرة التي تطوف بنفسها على ان كانت المولودة انثى ، وتلك العاطفة النبيلة او تلك الرقة وذلك الحنان اللذين يتجليان في توجهها الى الله من أجل مريم وقولها له « **اني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** » واستجاب ربها فاسكنها نباتا حسنا وتقبلها بقبول حسن وجعلها في كفالة رجل من رجال المحاريب هو زكريا وهنا نلمح اثر غير العادي في القصة من حوادث خارقة ومعجزات . فمريم يأتيها رزقها من السماء وزكريا يهب فيولد له يحيى وامرأته عاقر ، وتلك ارادة الله والله يفعل مايشاء .

ولقد كان هذا الموقف من زكريا بعد توجهه الى ربه ، وطلبه منه ذرية طيبة واستجابة ربه له ثم تعجبه من تلك الاستجابة محيرا للراوي فيما شرح من تفسير للقصة .

وتمضي القصة بعد ذلك ويكفينا منها هذه التوجيهات الدينية التي تتصل بمرداد وهي قوله تعالى « **ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وماكنت لديهم اذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم اذ يختصمون** وقوله **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم** وقوله **ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم** » .

وهكذا نستطيع ان نختم هذا المقال دون ان نعوننا لعب الذهن أو تكرير القول بأن أمور الدعوة الاسلامية وشرح عقائدها وتوضيح مبادئها كانت ترد في ثنايا القصة وبين طياتها في كل ما جاء في القرآن من قصص ، وأنها كانت عرضا لكنه ليس بالغرض الذي تنتهي عنده القصة ويكون منها النهاية أو الختام ، وانه من أجل ذلك كانت هذه التوجيهات من الموضوعات لا من الاعراض .